بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ، أما بعد :

فتعود صلتي بشفيق جبري إلى أيام المرحلة المتوسطة ، حين طُلب منا أن نحفظ قصيدته التي منها :

يا أمة من تراث الدهر خالدة * مضت ولم تقتبس آثارها الأمم

وظلت أغلب أبياتها راسخة في الذهن ، حتى قدّر لي أن أدرّسها ، فعدت إليها عودة المشوق ، متأملا في جوانب إبداعها ، وملامح جودتها .

ولمّا يسّر الله لي سبيل البحث العلمي ، عمدت إلى اختيار صاحب تلك القصيدة مجالاً لدراستي ؛ بدافع إعجابي المبكّر به ، ولما زخر به إنتاجه – شعرا ونثرا – من إبداع وتميّز ، يؤهله لأن يُدرس دراسة علمية تضيء جوانب أدبه .

وكان من دوافع هذا الاختيار أيضا ، ماييسّره درس الأدب الحديث من الاطلاع على المذاهب والتيارات الأدبية المختلفة ، شرقية كانت أم غربية ، مما لاغنى عنه في هذا العصر لمن يتخصص في الأدب .

وقد لحظت أن أكثر الدراسات الأدبية انصرفت إلى إنتاج لذاته ، وخصتهم بدراسات جيدة ، ولم يُدرس هو إلا في بحوث مختصرة أو مقالات انطباعية ، لاتدخل في نطاق الدراسة الجادة .

ومن أهم ماكتب عنه : البحث الضافي الذي كتبه الدكتور شكري فيصل ، واتُّخذ من بعد مقدمة لديوانه ، بعنوان (شفيق جبري ، الشاعر والشعر) ، وهي دراسة قيّمة ، هادئة في العرض ، متأنيّة في الاستنباط والحكم ، زادتها العلاقة بين الرجلين ثقة وقوة وصدقا .

ثم تأتي دراسة الدكتور عبدالفتاح عفيفي إضافة لابأس بها ، لولا ما خامرها من تسرّع في إصدار بعض الأحكام ، وعدم شمول ، وإعجاب مطلق بالشاعر ، إضافة إلى كونها مخصوصة بشعره .

ومن الكتابات الجيدة عنه مقالة بعنوان (شفيق جبري باحثا لغويا) لعبدالفتاح المصري ، وهي مقالة قيّمة ، لفتت النظر إلى بعض جهوده اللغوية ومواضع التميّز فيها ، ولكنها قصيرة لم تشمل كل إنتاجه اللغوي .

ولقد رأيت من حق هذا الأديب على النقد والأدب ، أن يُفرد بدراسة مستقلة ، تشمل شعره ونثره ، وتنبّه الأدباء إلى أثره في الشعر والنثر ، ودوره في إثراء الحركة الأدبية في الشام .

وبعد أن منّ الله بتسجيل هذا البحث لنيل درجة الماجستير تحت عنوان (شفيق جبري حياته وأدبه) ، عمدت إلى جمع مصادره ومراجعه ، وحاولت الاستقصاء ما أمكنني ذلك .

وكان أهمُّ ما اعتمدت عليه ، آثارَ هذا الأديب الشعريةَ والنثريةَ ، وأكثرها مطبوع متداول ، وكثيراً من مقالاته المنشورة في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، ومجلات وصحف أخرى .

ولقد سخت بعض المراجع بكثير من الحقائق عن هذا الأديب ، وأهمها الكتب التي درست الأدب المعاصر في سورية ، أو التي عرضت لأعلام الأدب فيها ، ثم الدراسات النقدية التي تناولت بعض أدبه بالنقد والتمحيص .

وقد اقتضت ضرورة البحث أن أرحل إلى دمشق مسقط رأسه ، بعدما نما إلى علمي أن ثمة أوراقا خاصة به في أضابير مجمع اللغة العربية ، ومن المهم الاطلاع عليها ، وقد كان هذا ، فالتقيت بنائب رئيس المجمع الدكتور شاكر الفحام الذي خصني بعنايته وتشجيعه ، ولقيتُ منه مالم أطمع في المزيد عليه ، والتقيت أيضا أمين المجمع الدكتور عدنان الخطيب فزوّدني ببعض مايهمني .

ثم علمت أن لشفيق شقيقا يقطن (بلودان) إحدى ضواحي دمشق ، فسرت إليه واجتمعت به ، ولقيت من لطفه وكرمه ما أفادني ، وبخاصة فيما يتعلق بالمخطوط من شعره .

ثم التقيت عددا من الأدباء هناك ، وأفدت من بعضهم كثيرا فيما كتب عن جبري من دراسات ، ومنهم الدكتور عادل الفريجات ، والأستاذ عيسى فتوح ، اللذان اهتما بالبحث ، وأعاناني على الوصول إلى عدد من المراجع غير المتوافرة بين يديّ .

هذا ، وقد سرت في هذا البحث وفق مخطط مكوّن من تمهيد وأربعة فصول ، فأما التمهيد فضمّنته حديثا عن الحالة السياسية والثقافية والاجتماعية في عصره .

وتناولت في الفصل الأول حياته ، مفصلا القول في مولده وأسرته وثقافته وشخصيته وحياته العملية ، ووفاته ثم أوردت ثبتا بمؤلفاته .

وكان الفصل الثاني خاصا بشعره ، حيث بدأت بالحديث عن ديوانه وفائته ، وأثبتّ ماتمكنت من جمعه من هذا الفائت ، مرتبا إياه بحسب القوافي .

ثم ثنّيتُ بالحديث عن شعره الوجداني ، فشعره الوطني والسياسي ، ثم شعره الاجتماعي ، وبعد ذلك أعقبتُ بدراسة فنية لشعره ، مشيرا إلى مضامينه ، وإلى خصائصه الشكلية ، ودرست معارضاته وموسيقاه ، وأبرزت مواضع التميّز الفني عنده .

أما الفصل الثالث فكان مخصوصا بالجانب الآخر من إبداعه ، وهو النثر ، إذ حصرت في مطلعه آثاره النثرية المطبوع منها والمخطوط ، خاصا كل أثر بمزيد بيان وتفصيل ، ثم خصصت كل نوع أدبي بمبحث مستقل ، فكان أولها فن المقالة ، ففنّ السيرة ، ثم أدب الرحلات ، وفصّلت الحديث في كل نوع ، وذكرت مايتعلق بكل منها من قضايا وموضوعات .

ونظرا لأن دراسة الأديب لا تتوقف على آثاره فحسب، ولكن تتطلب دراسة الآراء والتيارات ، ومطالعة الآثار المعاصرة ، عمدت في الفصل الرابع إلى عقد موازنة بين شفيق جبري وخليل مردم شاعريْن ، وبينه وبين محمد كرد علي كاتبيْن ، وكلاهما معاصر له ، ومجتمع معه في صفات كثيرة .

ثم أعقبت ذلك بذكر بعض آراء الدارسين والنقاد ، معلقا على بعضها عند الحاجة .

ثم ختمت البحث بذكر أهم النتائج التي وصلت إليها ، وأشرت إلى بعض الاقتراحات في هذا الشأن ، ووضعت بعد ذلك فهرسا للمصادر والمراجع ، وآخر للموضوعات .

ولقد أخذت نفسي بشرح الغريب ، والترجمة للأعلام الوارد ذكرهم ما أمكنني ذلك ، حتى يخرج البحث على أتم صورة وأجلاها .

وكان من جيد الاتفاق أن تتطابق خطة هذا البحث في كثير من نقاطها ، مع المخطط الذي اقترحه الشاعر نفسه على الدكتور عادل الفريجات ، الذي كان ينوي دراسة حياة جبري وأدبه ، ثم عدل عن ذلك .

وكان مما اقترحه جبري أن تكتب خلاصة الترجمة ، وهي تقابل في مخطط هذا البحث الفصل الأول ، واقترح أيضا أن تدرس طريقته في الدراسة ، وتحليله للكتب ، وهي تشبه إلى حد بعيد الفصل الثالث المخصص لدراسة نثره .

واقترح كذلك أن توضع مقابلة بين أسلوبه وأسلوب القدماء ، وهي نفسها الفصل الأخير من هذا البحث ، مع اختلاف زمن الموازَن بهم .

وختاما أزجي الشكر لكلية اللغة العربية بالرياض ، ممثلة بقسم الأدب ؛ لما أتاحته لي من فرصة مواصلة البحث العلمي ، وماوفّرته من جو علمي مبارك .

كما أسوق من الشكر أوفاه وأتمه للأستاذ الدكتور السيد مرسي أبو ذكري المشرف على هذا البحث ؛ لما لقيته منه من عون وتأييد ، مع سعة بال وحرص شديد ، حيث تابع مسيرة البحث من بدايته ، ورعاني بتوجيهه ، فأفدت من ملاحظه ونقداته ، رعاه الله وحرسه .

وأتوّج ذلك بشكر الله عز وجل - أولا وآخرا - على عونه وتوفيقه ، وآخر دعواي أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على محمد وصحبه .

عبدالله بن سليم الرشيد

١٥ - ١١ - ١٤١٣هـ

التمهيد

عصره وبيئته

ويشتمل على :

- الحالة السياسية .
- الحالة الاجتماعية .
- الحالة الثقافية .

الحالة السياسية :

شهدت سورية في مطلع القرن الرابع عشر الهجري أحداثا متعاقبة ، حيث كانت الدولة العثمانية تبسط سيطرتها على البلاد العربية ، وكانت تميل في سياستها إلى الضغط على العرب ، وإضعاف مكانتهم ، وفرض اللسان التركي .

أدى ذلك إلى نشوء جمعيات سرية تناوئ الحكم العثماني ، وتدعو إلى استقلال العرب ، مما جعل الدولة العثمانية تعلن تعديل الدستور مرتين ، كانت الأخيرة في عام ١٣٢٦ ، « وهي المرة ... التي انقلبت فيها هذه الدولة في زمن السلطان عبدالحميد[١] ، واكتسبت صبغة الحرية والمساواة »[٢].

وإثر إعلان الدستور جرت بدمشق احتفالات واجتماعات ، إظهارا للفرح والسرور[٣] ، وتقوى بعد ذلك حزب الجمعية الإصلاحية بدمشق ولبنان[٤]، ومال العرب قليلا إلى تأييد دولة الخلافة ، ولكنهم مالبثوا أن انقلبوا مناوئين لها ، إثر تولي حزب الاتحاد والترقي زمام السلطة ؛ لأنه سار على نهج عنصري ، فضيق الخناق على دعاة الإصلاح من العرب[٥].

وبعد قيام الحرب العالمية الأولى في عام ١٣٣٣هـ ، توالت الأحداث السياسية التي أدت إلى تغييرات كبيرة في الوضع السياسي لسورية بخاصة ، والعالم العربي بعامة .

ومنذ اندلاع الحرب جندت الدولة العثمانية آلاف الشباب والرجال من السوريين وغيرهم ، ولكن أكثرهم فروا ، وكانت حالة الشام تسوء كلما طال أمد الحرب[٦].

---

(١) السلطان عبدالحميد (١٢٥٨- ١٣٢٧هـ) من مشاهير سلاطين الدولة العثمانية ، في عهده افتتح مجلس المبعوثان ، وعدّل الدستور ، ولكنه مالبث أن عدل عن مظاهر الشورى تلك ، واستبد بالحكم ، فاضطربت الأوضاع في آخر عهده ، حتى أدت إلى خلعه ونفيه إلى سالونيك ، وله مواقف محمودة . (نقلا عن تاريخ سلاطين آل عثمان ، يوسف آصاف ص ١٥٩) . (والمنجد ٣٣٧) .

(٢) منتخبات التواريخ لدمشق ٢٧٩/١ ، محمد أديب الحصني ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ .

(٣) انظر : المرجع السابق ٢٨٠/١ .

(٤) انظر : المرجع السابق ٢٨٥/١ .

(٥) انظر : المدخل إلى الأدب العربي المعاصر ص ٤٠ ، تأليف د. إسحاق موسى الحسيني ، نشر معهد الدراسات العربية العالية عام ١٩٦٣م .

(٦) انظر : خطط الشام ١٤٢/٣ ، محمد كرد علي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٣٩١هـ .

وفي أثناء الحرب في عام ١٣٣٧هـ أعدم جمال باشا[١] والي دمشق نخبة من شباب العرب ، مما زاد في إيغار صدورهم ضد العثمانيين [٢].

ومن الأحداث السياسية المهمة في هذه الفترة ثورة الشريف حسين بن علي[٣] على الترك عام ١٩١٦م ، والمناداة به ملكا على الحجاز [٤].

وفي العام الذي بعده سقطت القدس في يد الإنجليز [٥]، الذين تقاسموا الشام مع الفرنسيين بعدما وضعت الحرب أوزارها ، فكان من نصيبهم فلسطين وما إليها ، واستأثرت فرنسا بالساحل [٦].

أما دمشق والمناطق الداخلية ، فقد دخلها الإنجليز ، ومعهم الشريف فيصل بن الحسين[٧] الذي تولى إمارتها ، وتولى علي رضا الركابي[٨] منصب الحاكم العسكري[٩] .

وفي عام ١٣٣٨هـ نودي بفيصل ملكا على البلاد ، وانسحب جيش الإنجليز « تاركا البلاد للحكومة الوطنية ، على أن يتقرر في مجلس الأمن من هي الدولة صاحبة النفوذ في ... دمشق »[١٠].

---

(١) جمال باشا السفاح (١٨٧٢-١٩٢٢) أحد الثلاثة الذين قاموا بحركة الاتحاد والترقي ، وكان هو مديرا لفرع الجواسيس في جمعية الاتحاد والترقي المذكورة ، قام بإعدام نخبة من العرب لاتهامهم بالتخطيط للثورة ضد الدولة العثمانية ، اشتهر بغلظته وقسوته ، قتل في تفليس (المنجد في الأدب والعلوم ١٤٠) .

(٢) انظر : منتخبات التواريخ لدمشق ٢٨٨/١ .

(٣) حسين بن علي (١٢٧٠-١٣٥٠هـ) زعيم الثورة العربية التي دعت في الحجاز للاستقلال عن الترك ، وآخر من حكم في مكة من الأشراف ، وقعت بينه وبين السعوديين مناوشات اضطر بعدها إلى الرحيل إلى عمّان فقبرص ، ومات في الأردن (الأعلام ٢٤٩/٢) .

(٤) انظر : خطط الشام ١٤٧/٣ .

(٥) انظر : السابق ١٤٦/٣ .

(٦) انظر : خطط الشام ١٦١/٣ .

(٧) فيصل بن الحسين (١٣٠٠-١٣٥٢هـ) من أشهر ساسة العرب في العصر الحديث ، نودي به ملكا على سورية بعد الحرب الأولى ، ثم على العراق ، مات بالسكتة القلبية في سويسرا (الأعلام ١٦٥/٥).

(٨) علي رضا الركابي (١٢٨٢ - ١٣٦١هـ) من رؤساء الوزارات ، تولى وظائف عسكرية ، كان آخرها في حكومة الملك فيصل ، انقطع في آخر حياته عن الناس حتى توفي (الأعلام ٢٨٨/٤) .

(٩) انظر : منتخبات التواريخ لدمشق ٢٩٠/١ .

(١٠) المرجع السابق ٣١٠/١ .

ولكن الحكومة العربية في دمشق لم تعمر طويلا ، فقد توترت علاقاتها مع فرنسا التي تبسط سلطانها على الساحل ، إثر اتهام الأخيرة لها بتمويل الثائرين عليها[١] .

وتطورت الأمور إلى مواجهة عسكرية غير متكافئة في معركة ميسلون[٢]، التي هزم فيها العرب ، وسقطت دمشق في يد الفرنسيين يوم ٢٤ تموز ١٩٢٠م[٣].

وإثر هذه المعركة « نفذت فرنسا وصايتها على سورية ... وفرضت اللغة الفرنسية في الإدارات والمحاكم »[٤]، « وعهدت بالحكم ... إلى رئيس سوري ، وجعلت لكل وزارة ولكل ديوان كبير مستشارا فرنسيا .. وتغلغل الفرنسيون في جميع فروع الإدارة ، تغلغل جيشهم المحتل في المراكز الحربية »[٥].

غير أن تضييق فرنسا على الحريات ، وفرض السيادة المطلقة ، وماتبع ذلك من تأخر في الحالة الاقتصادية بسبب تجزئة البلاد أدى إلى قيام « بعض الحركات المسلحة ... مثل حركة الشيخ صالح العلي[٦] عام ١٩١٩م ... وحركة إبراهيم هنانو[٧] في حلب ١٩٢٠م »[٨]، ثم حدثت بعد ذلك ثورة سلطان الأطرش[٩] التي امتدت من جبل العرب ، وعمت أواسط سورية غربا حتى حدود لبنان ... ثم امتدت إلى دمشق فأصلاها الفرنسيون نيران مدافعهم وقنابلهم[١٠].

---

(١) انظر : خطط الشام ١٧٣/٣ .

(٢) ميسلون : واد على أبواب دمشق من جهة الغرب . (نقلا عن أنا والنشر حاشية رقم (٢) ص ١٠٤ ، شفيق جبري ، الشركة المتحدة للتوزيع ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ) .

(٣) انظر : خطط الشام ١٧٨/٣ .

(٤) تاريخ العرب الحديث ص ٢٦١ ، زاهية قدورة ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٤٠٥هـ .

(٥) دمشق مدينة السحر والشعر ٤٧ ، محمد كرد علي ، دار المعارف بمصر ، سلسلة اقرأ .

(٦) صالح العلي (١٢٠٠-١٣٦٩هـ) مجاهد صارع الاستعمار الفرنسي بقوة السلاح ، وكان لثورته أثر في تاريخ سورية الحديث ، وكانت له زعامة جبل العلويين (الأعلام ١٩٣/٣) .

(٧) إبراهيم هنانو (١٢٨٦-١٣٥٤هـ) من كبار المجاهدين في الثورات الاستقلالية بسورية ، ألف حكومة وطنية في حلب ، وقاوم الفرنسيين طويلا حتى توفي (الأعلام ٤١/١) .

(٨) تاريخ العرب الحديث ٢٦٣ .

(٩) سلطان الأطرش (؟ - ؟) ثائر سوري من الدروز ، كان أول من أعلن ثورة عام ١٩٢٥ وقائدها ، اشتهر بالدهاء والشجاعة . (تاريخ العرب الحديث ٢٦٢) .

(١٠) انظر : تاريخ العرب الحديث ٢٦٣ .

وخلال الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩-١٩٤٥م ازدادت أوضاع سورية اضطرابا وسوءاً ، ونظرا لبعض الظروف السياسية والحربية آنذاك أعلن استقلال سورية في ١٧ آب عام ١٩٤٣م ، بعدما أعلنت فرنسا نهاية الانتداب [١].

غير أنها نكثت بعهدها ، فقلبت للسوريين ظهر المجن ، و« خرجت القوات الفرنسية من ثكناتها وانقضت على الأهلين ... وقصفت دمشق بالمدفعية والطائرات، .. فاحتجت الدول على هذا التصرف ... فعقد مؤتمر في باريس حضرته سورية ولبنان مع فرنسا وبريطانيا تقرر فيه جلاء القوات الأجنبية جلاء ناجزا في ١٧ نيسان عام ١٩٤٦م »[٢].

وبعد الاستقلال اختير شكري القوتلي[٣] رئيسا لسورية ، وعمدت الحكومة برئاسته إلى إزالة آثار الاستعمار في التعليم ، واتجهت إلى تعزيز الاقتصاد .

ووقعت في عام ١٩٤٨م كارثة فلسطين ، فاشتركت سورية في الحرب ، وخرجت منها كغيرها من الدول مهيضة الجناح ، وبينما هي تضمد جراحها ، حدث أول انقلاب عسكري في ٣٠ آذار ١٩٤٩م[٤].

كان هذا الانقلاب شؤما على سورية ، إذ تتابعت الانقلابات العسكرية في مُدد محدودة ، وأعيد القوتلي للرئاسة بعد الانقلاب الرابع ، وفي عهده قامت الوحدة مع مصر عام ١٩٥٨م ، ولكنها مالبثت أن انفرط عقدها إثر انقلاب خامس[٥] ، وتوالت الانقلابات حتى قام آخرها ، وهو التاسع بينها [٦].

وكانت تلك الانقلابات المتلاحقة بداية بلبلة سياسية ، واضطراب في الحكم ،

---

(١) انظر : تاريخ العرب الحديث ٢٦٦ .

(٢) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) شكري القوتلي (١٣٠٨-١٣٨٧هـ) أول رئيس للجمهورية السورية ، اشترك في العمل الوطني ضد الترك ، ثم شارك في الثورة ضد الفرنسيين ، وفي عهد رئاسته الثانية اتحدت سوريا ومصر ، توفي بالقرحة (الأعلام ٢/١٧٢) .

(٤) المرجع السابق ٢٦٧ .

(٥) انظر : تاريخ العرب الحديث ٢٦٩ .

(٦) انظر : المرجع السابق ٢٧٠ .

ويعد عهد الشيشكلي[١] الذي قام بالانقلاب الثالث أسوأ العهود ، لأنه صار يسقط الوزارات ويقيم غيرها بسهولة [٢].

إن هذا العصر الذي شهده الشاعر هو عصر الأحداث الجسام التي شهدتها بلاد العرب بعامة ، وسورية بخاصة .

فقد شهد في صباه احتضار الرجل المريض « الدولة العثمانية » ورأى مآسي العصر الأخير منها ، كموقعة ميسلون ١٩٢٠م ، وإعدام الشهداء العرب ١٣٣٧هـ ، وقيام الحكومة العربية ثم سقوطها ١٣٣٨هـ ، وعاش أيام الاستعمار الفرنسي البغيض ، ثم قرت عينه باستقلال بلاده .

ورأى بعد ذلك سلسلة الانقلابات التي كادت تعصف بسورية ، ولم يغمض عينيه ، إلا بعدما قاسى مع غيره من حكم الفرد .

لقد كان هذا العصر - كما يقول الشاعر نفسه - « نتيجة عصر ظلمات في الفكر واستبداد في الحكم ، وسوء تصرف في الأمور »[٣]، وسوف يرى القارئ كيف اصطبغ شعره بصبغته ، فغلبت عليه المعاني الوطنية ، من بكاء على الوطن ، أو تمجيد للاستقلال ، أو رثاء للشهداء .

كما أن بعض نثره انطوى على روح متذمرة من الواقع السياسي ، تستشرف الخلاص والانطلاق في ركب الحضارة والتقدم .

---

(١) الشيشكلي (١٣٢٧ - ١٣٨٤ هـ) أحد قادة الانقلابات في سورية ، صار رئيسا للجمهورية عام ١٩٥٣م ، وكان مستبدا عنيفا في قمع معارضيه ، فثار مشاعر الناس . فاضطر للهرب إلى البرازيل ، واغتيل فيها . (الأعلام ٢٨٥/١) .

(٢) انظر : فارس الخوري وأيام لاتنسى ١٥١ ، تأليف محمد الفرحاني ، بيروت ١٩٦٥م .

(٣) من مقدمته لكتاب " الأدب العربي المعاصر في سورية " ص ٧ ، تأليف سامي الكيالي ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ١٩٦٨م .

الحالـة الإجتماعيـة :

اتصفت الحياة الاجتماعية في الشام بصفات المجتمعات الشرقية المسلمة بعامة ، فهي مجتمعات محافظة يغلب عليها الطابع القديم في المعاملات الاجتماعية ، ولكنها فقدت كثيرا من مقوماتها وخصائصها بعد الانفتاح على الغرب ، وبسبب ماخلفه الاستعمار من آثار في الفكر والثقافة .

ففي دمشق - التي عاش فيها الشاعر - كانت المظاهر الشعبية هي الغالبة ، فالأحياء متقاربة متلاصقة ، ضيقة الشوارع ، وأغلب الدور مستورة « لايرى من فيها أحدا ، ولايراهم منها أحد ، ولانافذة لها على الطريق »[١]، لأن الستر كان هو الغالب على النساء[٢].

وكان في كل حي جامع حافل بالعلماء ، عامر بالدروس ، يجتمع فيه الناس ، وكانت الجوامع كمجالس المحافظات ، والحي كأنه أسرة واحدة لما بين أهله من التعاون والاشتراك في مصاعب الحياة ونعيمها[٣].

وقد أوجدت هذه الأسرية أو العشائرية ، « فئة من الزعماء والوجهاء تتحكم في الأحياء ، وتفرض سلطانها »[٤].

وكانت الخصومات والقلاقل قليلة ، نظرا لما اتصف به الدماشقة من الأخلاق الرضية ، فهم « يوصفون بالكرم واللطف ، .. ويميلون إلى السلامة والسكينة والتودد ، ويحبون الانشراح والسرور »[٥] وبجانب هذا « فلا تراهم إلا مرتبطين بربط الوداد والسكينة ، يحترم بعضهم بعضا »[٦].

ومما اتصف به السوريون « المحافظة على ماورثوه من بعض أخلاق الفاتحين العرب منذ نيف وثلاثة عشر قرنا ، وهي الرزانة والوقار والصبر على المصائب ،

---

(١) انظر : دمشق ، صور من جمالها وعبر من نضالها ١٢٣ ، علي الطنطاوي ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ .

(٢) انظر : المرجع السابق ١٢٥ .

(٣) انظر : دمشق ١٢٤ للطنطاوي .

(٤) انظر : تاريخ سورية أواخر الحكم التركي ٢٢ ، د. علي سلطان ، دمشق ١٩٩١م .

(٥) القول الحق في بيروت ودمشق ٦٥ ، عبدالرحمن سامي ، دار الرائد العربي ، بيروت ١٤٠١هـ .

(٦) انظر : المرجع السابق ٧٣ .

ويلتزمون هذه الرزانة وهذا الوقار في أعمالهم ومجالسهم .. وفي بيوتهم ... ومجالس سمرهم .. ويكرهون من يتصف بالطيش والرعونة ... ولكل عادة من هذه العادات شذوذ وهي قليلة »[١].

ولأهل الشام كغيرهم من المسلمين مواسم يحتفلون بها ، كالعيدين ورمضان والحج ، ولكنهم يزيدون على ذلك بعض الاحتفالات الأخرى - كما يقع في أغلب المجتمعات - كالمولد النبوي ، ورأس السنة الهجرية ، وبعض احتفالات الصوفية ، الذين كانت لطرقهم صولات وجولات ، وانتشار وقبول عند العامة ، وهي ذات أصول قديمة في الشام ، وأكثرها قائم على الابتداع وخداع السذّج والتعالم وبث المعتقدات الخرافية[٢].

ولم يبرح بعض من لايعتد بعقولهم ينذرون بعض نذور غريبة .. ويقيمون لها حفلة يختلط فيها اللهو واللعب بالشعوذة والخداع[٣]، ولكن أغلب هذه العادات المنحرفة « على وشك الزوال »[٤].

ولأهل الشام بعض العادات الخاصة بالخطبة والزواج[٥]، وعادة الخروج « إلى المتنزهات العامة يوما في الأسبوع لاستنشاق الهواء النقي »[٦].

ومن عاداتهم الشائعة ، التجمع في المقاهي ، وتعاطي القهوة والشاي وأنواع المرطبات ، وارتياد أماكن السمر بعد العشاء « وأحاديثهم غالبا تدور على السياسة وموضوعات علمية واجتماعية .. ومنهم من يقضي سمره ببعض الألعاب الشائعة »[٧] .

---

(١) خطط الشام ٦/ ٢٨٠ .

(٢) للتوسع في حركات الصوفية وجذورها في الشام . انظر : المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني ١٧٧ ، د . ليلى الصباغ ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٧٣م .

(٣) انظر : خطط الشام ٦/ ٢٧٦ .

(٤) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٥) انظر : خطط الشام ٦/ ٢٧٧ .

(٦) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٧) خطط الشام ٦/ ٢٨٠ .

ومن ملاهيهم القديمة التي نشأت مع الأمية ، سماع القصاص في المقاهي ، وقد اختفت هذه الظاهرة في العقود الأخيرة [١]، ومن ملاهيهم أيضا خيال الظل « وكان ذا تأثير في تهذيب الأخلاق وتقويمها» [٢].

ومن مظاهر الحياة الاجتماعية في الشام [الحمامات] التي تعد من المعالم التاريخية ، وكانت وظيفتها سابقا أوسع وأشمل ، تمثل صورا من التقاليد والعادات الدمشقية ، ولكنها في أواخر القرن الرابع عشر بدأت تفقد كثيرا من مكانتها ، وقلّ عددها [٣].

إن تلك المظاهر الاجتماعية التي تميزت بها الشام ، أخذت في الزوال ، منذ « انتشر تقليد الغربيين .. في معظم مرافق حياتهم وفرش بيوتهم ولباسهم » [٤].

وفي خلال الخمسينيات الميلادية أثّرت كثرة الانقلابات العسكرية ، وظهور كثير من التغييرات العامة في إحداث تبديلات جذرية في المجتمع السوري ، وقلقلة في بنيته [٥].

أما من حيث الوضعُ الاقتصاديُّ ، فإن سورية تعد مركزا اقتصاديا مهما منذ القدم ، فبسبب موقعها الجغرافي المهم « أصبحت سوقا للدولة العثمانية نفسها ، يتوافد عليها التجار من جميع أنحاء البلاد .. وكان يزيد في الاعتماد على التجارة التأخر الشديد في مجال الزراعة ، وعدم وصول الصناعة إلى مرتبة الدول الصناعية في أوروبا ، وكانت أرباح التجارة أكثر ، ولذا مال كثير من السوريين نحوها » [٦].

ومع استئثار التجارة بالنصيب الأوفر من اهتمام القوم ، وُجدت بعض المصنوعات الزراعية ، وقد عدّ منها محمد كرد علي أنواعا كثيرة [٧]، وقال إن للفلاحة

---

(١) انظر : المرجع السابق ٢٧٩/٦ .

(٢) خطط الشام ٢٧٩/٦ بتصرف.

(٣) انظر : خطط دمشق ٤٩٣ ، أكرم العلبي ، نشر دار الطبّاع ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ .

(٤) انظر : دمشق مدينة السحر والشعر ١٠٣ .

(٥) انظر : مقال [التطور الفني لشكل القصة السورية القصيرة] نعيم حسن يافي ، مجلة الآداب ، العدد الصادر في ٦ حزيران ١٩٦٥م ، السنة الثالثة عشرة ص ٥٧ .

(٦) انظر : تاريخ سورية ٨٩ .

(٧) انظر : خطط الشام ١٨٩/٤ ، وانظر ترجمة مفصلة لمحمد كرد علي في الفصل الرابع من هذا البحث .

شأنا غير شأن الصناعة والتجارة ، ومعظم صادرات سورية وارداتها زراعية ، « فالزراعة هي الركن الأعظم في حياة هذا القطر الاقتصادية »[١] مضافا إليها بعض الصناعات البدائية التي ظهرت بعد استقرار الحكم العربي[٢] .

ويمكن إجمال القطاعات الاقتصادية منذ القرن الثامن عشر وحتى اليوم على النحو التالي :

١ - القطاع الحرفي المتسع ، ويشمل الحرف المنزلية وغيرها .

٢ - قطاع التبادل التجاري بين المدن والقرى المجاورة لها ، وأكثره مما يجلبه الفلاحون .

٣ - قطاع تجارة الاستيراد والتصدير بين المدن الشامية .

٤ - قطاع التبادل مع العالم الخارجي [٣].

ومن النشاطات الاقتصادية التي أنعشت دمشق ، تلك الحركة التجارية التي فرضها موقع دمشق في طريق الحج ، فكان موسم الحج فترة ازدهار لمعظم الفئات الاجتماعية في دمشق من حرفية فلاحية وتجارية ، بسبب ماتحتاجه قوافل الحجيج من منتجاتهم [٤].

وقد استمر هذا الوضع الاقتصادي المرتبط بالحج إلى وقت قريب ، ولم ينقطع إلا بعد النظم الجديدة التي ألغت أساليب التنقل القديمة ، مما جعل دمشق بعيدة عن الحاج .

وبعد : فإن تلك البيئة المحافظة التي شبّ فيها جبري ، ساعدت في تشكيل أدبه ، ورسم معالم ثقافته ، فكان شاعرا محافظا ، يترسّم خطا الأوائل ، وينحو نحوهم ، ثم إن انفتاح بلده على الحضارة من بعد ، جعله يسير شوطا في التجديد شعرا ونثرا ، كما سيأتي .

---

(١) المرجع السابق ١٩٨/٤ .

(٢) انظر : منتخبات التواريخ لدمشق ١١٣٩/٣ .

(٣) انظر : حركات العامة الدمشقية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ص ٧ ، د. عبدالله حنّا ، نشر دار ابن خلدون ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٥م .

(٤) انظر : المرجع السابق ١٢ .

الحالـة الثقافيـة :

لم تكن حالة الشام الثقافية في مطلع القرن الرابع عشر الهجري بأحسن من مثيلاتها في الأقطار العربية الأخرى ، فقد رانَ عليها جميعا خواء شديد وتخلف وبخاصة في الحياة الأدبية ، وقد أشار بعض الدارسين إلى بعض أسبابه ، وذكر منها فقدان التشجيع ، والاحتكار العلمي [١].

أما رأس أسباب ذلك التخلف فهو ضعفُ اللسان العربي ، بسبب حملة التتريك التي دأبت الدولة العثمانية على محاولة فرضها ، قارنة ذلك باحتقار العرب والترويج للعنصرية التركية ، مما حفز بعض الغُيُر على إنشاء جمعيات سرية تهدف إلى الحفاظ على العربية ونشرها ، مثل جمعية النهضة العربية التي أسسها محب الدين الخطيب ١٣٢٤هـ [٢].

كما ظهرت الرابطة الأدبية ١٩٢١م برئاسة خليل مردم [٣]، وسعت جاهدة بالعمل على أسس قويمة لتصفية اللغة من الشوائب التركية وإعادتها إلى جزالتها ومتانتها ، وكان من أعضائها شفيق جبري [٤].

ومما ساعد على محاربة التتريك اشتدادُ الحماسة في الإقبال على تعلم اللغة العربية وإعزازها إبّان العهد الفيصلي (١٩١٧-١٩٢٠م) وماقبله [٥]، ونشاط بعض أبناء البلاد في استصلاح حالة المدارس « على مايلائم روح الأمة العربية »[٦] ، وإنشاء دار للآثار ، وتجهيز دار الكتب الظاهرية بجهاز حديث ، ثم تحوّل ديوان

---

(١) انظر : فكر ومباحث ١٢٨ ، علي الطنطاوي ، مكتبة المنارة ، مكة ، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ .

(٢) انظر : من حاضر اللغة العربية ٣٤ ، سعيد الأفغاني ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الثانية ١٩٧١م .
- ومحب الدين الخطيب (١٣٠٢-١٣٨٩هـ) من رجالات النهضة العربية ، أصدر صحفا كثيرة وشارك في الثورة العربية بقلمه ، حكم عليه بالإعدام غيابيا ، واستقر في آخر عمره في القاهرة ، من آثاره : الحديقة وتاريخ الزهراء . (الأعلام ٥/٢٨٢) .

(٣) انظر : اتجاهات النقد الحديث في سورية ١٣١ ، د. جميل صليبا ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٩م .

(٤) انظر : النثر الأدبي الحديث في سورية ٣٧٤ ، د . نشأة ظبيان ، دار العلوم ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ .

(٥) انظر : من حاضر اللغة العربية ٨١ .

(٦) خطط الشام ٦/٣٤٢ .

المعارف بأعضائه ورئيسه إلى مجمع علمي في ٨ حزيران ١٩١٩م [١].

شهدت سورية منذ إنشاء المجمع العلمي العربي [مجمع اللغة العربية الآن] نشاطا لغويا جعل نصب عينيه إعادة الاعتبار للفصحى ، ومحاربة العامية وأشكال العجمة ، وقد شارك شفيق جبري في ذلك ، فألقى عدداً من المحاضرات ، وكان عضوا عاملا فيه [٢].

هذا ماكان من شأن التتريك وماتبعه من آثار ، أما المدارس فقد كانت كثيرة يعيا دونها الحصر في الربع الأول من القرن الرابع عشر ، ولكن الزمان أخنى عليها فاندثر أكثرها [٣].

وقد اتهم عبدالقادر بدران[٤] أهل زمانه بأنهم « أضاعوا العلم وديارَه ، وطمسوا معالمه وآثاره .. »[٥] ، وتحدث بالنغمة نفسها محمد كرد علي ، إذ قال بعدما تحدث عن آثار دمشق ومدارسها : « ولكن الجهل قضى على تلك المدارس ... فخربت وتغيّرت معالمها »[٦] .

وكانت المساجد مثابة لطلبة العلم الذين يجدون فيها حلقات لتعليم الشريعة واللغة وفنونهما « وقد بقيت هذه الحلقات قائمة في الجامع الأموي حتى نهاية العصر العثماني ، واستمرت بعد ذلك على نطاق ضيق .. »[٧].

أما الكتاتيب فقد استمرت إلى عهد قريب ، وأدركها شفيق جبري ، ودرس فيها ، ثم اندثرت بعدما نُظّم التعليم وأُلغيت الطرق القديمة .

---

(١) انظر : المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٢) انظر : من حاضر اللغة العربية ١٠٦ .

(٣) انظر : منادمة الأطلال ومسامرة الخيال ٧١ ، عبدالقادر بدران ، المكتب الإسلامي ، دمشق ، الطبعة الأولى .

(٤) عبدالقادر بن أحمد بدران (ت ١٣٤٦هـ) فقيه حنبلي ، عارف بالأدب والتاريخ وله شعر ، من آثاره منادمة الأطلال وديوان خطب والكواكب الدرية . (الأعلام ٤/٢٧) .

(٥) منادمة الأطلال ٢٦٣ .

(٦) خطط الشام ٦/١٦٧ .

(٧) خطط دمشق ٢٩٩ " بتصرف " .

أما التعليم النظامي ، فإنه بدأ في أواخر العهد العثماني ، إذ انتشرت المدارس الحكومية والأجنبية والأهلية ، فأما الحكومية فلغتها التركية ، وأكثر معلميها أتراك ، ومن كان عربيا درّس بالتركية [١] ، « ولهذا أصبح معظم الدارسين في مدارس الحكومة يتخرجون وهم لايحسنون لغتهم ... ولم تدرس اللغة العربية بشكل إلزامي .. إلا بعد عام ١٩١٤م » [٢].

وحتى بعد تدريس اللغة العربية ، استمر الوضع المتردي ؛ لأن العربية صارت تُدرّس من قبل مدرسين غير عرب ، لايتقنون العربية ، بل يساعدون على ضعفها [٣] .

وأما المدارس الأجنبية فكانت ذات هدف استعماري تبشيري ، وقد جعلت التدريس أول الأمر بالعربية ، ثم صار بلغات دولها [٤] ، ولاشك في أن هذه المدارس - على مافيها - ساعدت على النهوض باللغة والتمكين لها [٥].

وأما المدارس الدينية ، فصرفت عنايتها للناحية النظرية مع إهمال التطبيق والاشتغال بالشكل وحفظ الكتب السقيمة الركيكة ، وأما المدارس الأهلية فقد حرصت على تخريج نَشْءٍ عربي يحافظ على دينه ولغته ، وكان لها أثر جيد [٦] ، وأول من أنشأها المسيحيون ثم تبعهم المسلمون ، ولكنها ضعفت وقل الانتساب إليها ، بسبب تفشي الجهل والتخلف [٧].

وفي نحو ١٣٢٠هـ بنيت بدمشق مدرسة الطب على الطراز الجديد [٨] ، ثم أنشئت كلية الآداب التي صار جبري عميدا لها ، في عهد الاستقلال بعد الحرب العالمية الثانية .

---

(١) انظر : من حاضر اللغة العربية ٢٢ .
(٢) تاريخ سورية أواخر الحكم التركي ١٣٠ .
(٣) انظر : المرجع السابق ١٣٣ .
(٤) انظر : من حاضر اللغة العربية ٢٢ .
(٥) انظر : في الأدب الحديث ١٤٨/١ ، عمر الدسوقي ، دار الفكر ، الطبعة الثامنة ١٩٧٣م . وانظر أيضا : مقدمة في دراسة الأدب الحديث ١١٧ ، د. حلمي مرزوق ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨٠م.
(٦) انظر : من حاضر اللغة العربية ٢٢ .
(٧) انظر : تاريخ سورية أواخر الحكم التركي ١٢٥ .
(٨) انظر : منادمة الأطلال ٢٦٣ .

« ولم تعرف دمشق الشهادات والإجازات العلمية ... إلا بعد دخول المؤثرات الغربية وطرائق تعليمها »[١].

وفي العقود الأخيرة من هذا القرن تطور التعليم في مراحله المختلفة ، وكثرت المدارس والمعاهد المتخصصة ، ودور المعلمين والمعلمات ، وأنشئت ثلاث جامعات[٢].

وكان مئات من أبناء دمشق تعلموا في ديار الغرب ، بعد انتشار القانون العثماني سنة ١٩٠٨م ، ونبغ منهم كثيرون في عدة فنون ، وازدهرت العلوم الدينية واللغوية[٣].

وبعد هيمنة الاستعمار انتشرت اللغتان الفرنسية والانكليزية عند الشاميين[٤]، وازدادت الروابط بين الأدبين العربي والفرنسي بعد الحرب العالمية الأولى ، عندما احتلت فرنسا هذه المنطقة ، ونشرت ثقافتها على نحو واسع[٥].

وقد واكبَ تلك النشاطات العلمية ، ازدهار حركة التأليف والترجمة والتعريب على مافي الأخيرين من اضطراب ، وجاء إنشاء المجمع العلمي رافدا ثقافيا أسهم في دفع النشاط اللغوي والأدبي عن طريق مجلته[٦].

أما الصحافة فإن السوريين يعدون أسبق من غيرهم في إصدارها وبخاصة السياسي منها[٧]، ومنهم من اشترك في إصدار صحف في مصر عقب هربهم من سورية إثر حوادث سنة ١٨٦٠م[٨]، مثل أديب إسحاق[٩] وسليم وبشارة تقلا[١٠].

---

(١) مجتمع مدينة دمشق ٢/٣٩٧ ، د . يوسف نعيسة ، دار طلاس ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٩٨٦م .

(٢) انظر : تاريخ العرب الحديث ٢٧٢ .

(٣) انظر : دمشق مدينة السحر والشعر ١١٠ .

(٤) انظر : المرجع السابق ٩٦ .

(٥) انظر : صفحات مجهولة من الأدب العربي المعاصر ٦٥ ، أنور الجندي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الأولى ١٩٧٩م .

(٦) انظر : محاضرات في الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام وأثرها في الأدب الحديث ص ٦٨ و ٧٣ ، د . جميل صليبا ، نشر معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٨م .

(٧) انظر: في الأدب الحديث ١/٩٩، ويلاحظ أن لفظ (السوريين) في هذه الفترة يشمل سكان سورية ولبنان.

(٨) انظر : المرجع السابق ١/١١٦ .

(٩) أديب إسحاق (١٢٧٢-١٣٠٢هـ) من رواد الصحافة العرب ، دمشقي الأصل ، من آثاره (الدرر) مجموعة مقالات ونظم . (الأعلام ١/٢٨٥) .

(١٠) سليم وبشارة تقلا : صحفيان لبنانيان ، أسسا جريدة الأهرام ، وكانت فيهما جرأة ، ولسليم كتاب في الإعراب ، وقد توفي سنة ١٣١٠هـ ، وتوفي بشارة سنة ١٣١٩هـ . (الأعلام ٢/٥٢ ، ٣/١١٧) .

وكان في دمشق مع مطلع القرن الرابع عشر جريدة رسمية واحدة ، وثلاث مطابع [١] ، ولكنها مالبثت أن كثرت ، حتى كان منها نحو مائة صحيفة ، ولكنها كانت « خلواً من الفوائد اللازمة » [٢] ، ثم توقف أكثرها .

وصدرت صحف باسم السلطة العثمانية ، بعضها بالعربية ، وبعضها بالتركية ، كما أن هناك صحفا تابعة للدول الأجنبية تقوم بالدعاية لها [٣] .

وفي سنوات الحرب العالمية الأولى قلت الصحف ، بسبب زيادة الرقابة .... وازدياد تكاليف إصدارها ، وأسباب أخرى [٤] .

ولقد كان للصحافة دور كبير وأثر بيّن في إثارة المشاعر إثر تجزئة الشام وفرض الانتداب [٥] ، كما كان للمجلات الثقافية أثر واضح كذلك في تنشيط الأدب وإحياء الثقافة .

ومن أشهر الصحف والمجلات التي صدرت : المقتبس (١٩٠٨م) [٦] والشعلة (١٩٢٠م) [٧] ، ومجلة المجمع (١٩٢١م) [٨] ومجلة الحديث (١٩٢٧م) [٩] ومجلة التجدد (١٩٢٧م) [١٠] ومجلة الضاد (١٩٢٩م) [١١] . وصدرت بعد ذلك صحف ومجلات كثيرة، متشعبة الاهتمامات ، كمجلة الموقف الأدبي ، ومجلة الثقافة (١٩٥٨م) .

ولعل أكبر آثار المجلات الأدبية أنها سبّبت ازدهار الشعر ورواجه ، فالشعر هو الترجمان القوي لمشاعر الشعوب العربية وأهوائها في النزعات الوطنية والقومية [١٢] ،

---

(١) انظر : القول الحق في بيروت ودمشق ١٠٧ .
(٢) خطط الشام ٨٣/٤ .
(٣) انظر : تاريخ سورية في أواخر الحكم التركي ١٥٤ .
(٤) انظر : المرجع السابق ١٥٩ .
(٥) انظر : الأدب والقومية في سورية ٢٣٢ ، سامي الكيالي ، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٩م .
(٦) انظر : تاريخ الصحافة السورية ٢٩٥/١ ، د . شمس الدين الرفاعي ، دار المعارف بمصر ١٩٦٩ .
(٧) انظر : المرجع السابق ٢٥/٢ .
(٨) انظر : المرجع السابق ٧١/٢ .
(٩) انظر : الأدب العربي المعاصر في سورية ٣٨١ .
(١٠) انظر : تاريخ الصحافة السورية ٧٢/٢ .
(١١) انظر : الأدب العربي المعاصر في سورية ٣٩٣ .
(١٢) انظر : الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور ٢٤٢ ، د . شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ١٩٨٤م .

والمجلات هي وعاؤه الذين يذيع من خلاله وينتشر .

ومهما يكن من أمر ، فلقد ورث هذا العصر في بدايته الخواء الذي ران على الأمة العربية في قرونها المتأخرة ، ثم كان الانبعاث الحضاري - بعد الحرب العالمية الثانية واستقلال معظم الدول - فشمل مرافق الحياة من اجتماع وثقافة وصناعة ، وكان لسورية - بلد الشاعر - نصيب من هذا التطور ، ورد تفصيله في تضاعيف الصفحات السابقة .

ولم يكن صاحبنا بمنأى عن تلك النشاطات الثقافية والاجتماعية ، فقد شارك فيها مشاركة فاعلة رائدة ، فكان عضوا في كثير من المؤسسات الثقافية والعلمية ، واهتم بالكتابة للصحافة ، حتى أضحى له صوت مسموع ، وعُدّ بحق من كبار أدباء الشام في هذا العصر ، كما سيرد إن شاء الله .